التمثال المغشى فى سايس

﴿ قصيدة مختارة من نظم الشاعر الألمانى العظيم شلّر ﴾
(تعريب الدكتور على العنانى)

فتًى ساقه ظمأُ المعرفةِ الحارُّ
الى سايس فى وادى النيل
ليتعلمَ حكمةَ الكهنةِ السرّية ، وقد
وصلَ بسرعة الخاطر وحدّةِ الذكاء الى درَجاتٍ تُذكر .
دائماً تدفعه شهوة المعرفةِ والرغبةُ فيها الى البحث ،
وقلّما تمكن الكاهنُ من تهدئة هذا الشغوف ،
اللاّهج بقوله : « ماذا يكون لى ،
إذا لم يكنْ الكلُّ كاملاً ؟
أيوجد هنا أكثر وأقلّ ؟
هل الحقيقة مثل السعادة المادية
كميةٌ فقط يُنال منها القليل أو الكثير ؟
وعلى الدوام تَبْتَغى الزيادة فيها ؟
أليستْ الحقيقةُ واحدةً لا تتجزّأ ؟
إنزعْ نَغَماً من لحنٍ !
أمْحُ لوناً من قَوْس قُزَحٍ !
تجد أنّ كلّ ما بقى لك ليس شيئاً
ما دام الكلُّ الجميلُ للحنِ واللونِ ناقصاً » .
وبينما كانا هكذا يتحادثان ،
وقفا صامتين داخلَ المَعْبَدِ
إذْ وقع نظرُ الصبىّ
على تمثالٍ جسيمٍ سُدِلَ عليه ستارٌ .
فنظر الغلام متعجباً الى قائده وقال :
« ما هذا المحبوء تحت السّتار ؟ »

« الحقيقة » كان جواب الكاهن ، فرفع الفتى عقيرته
قائلا : « ماذا ؟ — نحو الحقيقة وحدها أسعى
وهى بعينها التى يحجبها عنى الانسان ! »

***

فأجاب الكاهنُ : « سل القوة الالهية عن ذلك —
فانها قالت : لا يوجد فانٍ يرفع هذا الستارَ
حتى أرفعَه أنا بنفسى ،
ومَن مدَّ يداً أثيمةً ملوَّثةً بالرِّجْسِ
الى الغِشَاءِ المقدَّسِ المنيعِ
ليرفعَه قبل الاوان فانّه كما قالت الآلهة . . . »
فنادى الصبى : « الآن » فقال الكاهنُ :
« . . . فانه يرى الحقيقة » فكان جواب الفتى : « وحىٌ غريبٌ !
وأنت نفسك ، أنت ، أما رفعته أبداً ؟ » فرد الكاهنُ :
« أنا ؟ — كلا ثم كلا ! وما حاولتُ هذا قطّ » .
فتعجب الشاب وقال : « عسيرٌ علىَّ أن أفهم هذا —
أيكون هذا الحاجزُ الدقيقُ هو الحائلُ دون ما أبتغى ؟ »
فقاطعه الكاهنُ قائلا : « وقانونٌ أثقلُ يابنىَّ مما تظنّ .
حقيقةً هذا الستارُ الرقيقُ خفيفٌ على اليدِ
ولكنَّه ثِقْلُ القناطير على الضمير » .

***

الى البيت عاد الشابُّ ملىءَ الفكرِ .
وفيه انتزعتْ منه الرغبة الحارةُ فى المعرفة
النومَ ، وألهبت فيه ناراً ، وأقضَّت مضجعَه .
ففرَّ منتصفَ الليل من فراشه الى المعبد .
وقد ساقته خُطًى رهيبةٌ اليه مع انزعاجٍ ووجلٍ .
هناك تخطى السّورَ دون أىّ صعوبةٍ
والى الداخل دفع نفسه متشجعاً
فصار فى بَهْوِ العبادة والصلاةِ .

***

هنا وقف الصبىُّ الآنَ مرتعد الفرائص .
قد أزعجه الانفرادُ فى هذا السكون الرهيبِ
الذى لاتقطعه نَبْأةٌ بَلْهَ رَجْعِ الصَّدى
من الاجداثِ المظلمة كلما وقع القدمُ .
مِنْ فوق ، مِنْ كُوَى القبة أرسل القمرُ

شعاعاً ممتقعَ اللّون فى زُرْقَةِ الفضّةِ
فلمح التمثالَ فى رهبةٍ إذ بدا له
فى غِشائه الفضفاضِ وسطَ الظلام
كأنّه إله عظيمُ الجبروتِ .

***

الى هناك تقدّم الفتى بخطوات ثقيلة بطيئة
وأخذتْ يدُه العابثةُ تهمُّ بمسّ مُقدّسِ الاقداسِ
فاضطرب محموماً وجد مقروراً
واندفع الى الوراء بيدٍ خفيّةٍ لا تُرَى
فناجاه ضميره الخالص معنفاً :
ماذا تريد أن تصنع هنا أيها الشّقى ؟
أراغبٌ أنت فى إهانة التمثال ؟
أما نطق الوحىُ قائلا :
« لا يوجد فانٍ يرفع هذا الستارَ حتى أرفعَه بنفسى ؟ »
ولكن ألم يقل نفسٌ هذا الوحى بعد ذلك :
« مَنْ يرفعْ هذا الستارَ يَرَ الحقيقةَ ؟ »
وهنا نادى الصبىُّ بصوت جهورىٍّ : انى لأرفعه .
مهما كان الأمر . انى أريد رؤيتها » .
... رؤيتها !
صدى طويل حسبه الفتى تهكماً عليه .

***

نطق بهذا ورفع الستارَ .
والآن تسألون : ماذا حدثَ له ؟
لا أدرى . أصفرَ مغشياً عليه
وجده الكهنة فى صبيحة الغد
ملقى بجوار نصب أيزيس،
وما رآه وما عرفه ما نطق به لسانه،
لأنه فقد التّنبُّه الى الابد ،
وانتزع منه الكدرُ النفسَ
وألقى به فى الرَّمْس
غير أنّ كلمة محذّرة كان يفوه بها
كلما أثقل عليه سائلٌ مُلحٌّ وهى :
« ويلٌ لمن يطلبُ الحقيقةَ من طريق الاثم ،
انه لا يسعد بها مَدَى الحياة» .